

من مشاهدات سائر في نيويورك

الأبيض والأسود . . . وقصص أخرى !

تتناثر في نيويورك الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ؛ فهذا حيّ الإيطاليين ، وهذا حيّ الإيرلنديين ، وهذا حيّ الإسبان ، وهذا حيّ الروس ، وتلك أحياء آخر لأجناس آخر . . .

وإن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمركها ، فتتضاءل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة وإن تفرقت بهم المناسبات والأصول . . .

تتحلل أحياء الأجناس في بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها في بوتقة الأمة الأمريكية . . .

ولكن ثمة حيّ لا أدرى كيف يتحلل في بوتقة نيويورك وكيف يتحلل جنسه في بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كاللحجر الصلد لا يلين للأحماض المذيبة ، ولا ينصهر في أتون النار المتقدة . . .

ذلك هو حيّ الزنوج ، أو مدينة هارلم ، كما يسمونها هناك . . . إنه أبعد أحياء نيويورك صيتاً ، وأوضحها تمييزاً . ومرجع ذلك إلى قوة المقاومة في جنسه ، وما يحيط به من ملابسات تعين على احتفاظه بجوهره . . . إن الأجناس الأخرى ليسرع إليها التحول والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة . أما الزنجي فإنه وإن استمسك بأمريكيتيه واعتز بها واكتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو ما برح يعد نفسه غريباً في أمريكا . . . غريباً في وطنه !

إنه ليشعر بأن جنسه هدف للضيم والاضطهاد ؛ ولذلك يتحصن خلف أسوار حيه ، يكاد يحظر دخوله على غيره ، بل يكاد يقيم عليه باباً لا يستطيع اقتحامه أحد . . .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن تجد جنساً لا يعرف له وطناً إلا أمريكا التي

يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبى الاندماج في هذا الوطن ، أو لعله لا يجد السبيل إلى هذا الاندماج . . .

تجول في هارلم ، فاذا بك في حي كسائر أحياء نيويورك في ظواهر العمران . . .
إلا في السكان !

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لما . . .

إن الأبيض يطرق هذا الحي وهو عليم بأنه إذا توغل فلن يأمن على نفسه الغوائل . فكأن من كلمة أثارت شغباً وأججت حرباً ، وكأين من إيماء أقامت قتالا وأورثت وبالا . . .

إن هذه الوجوه السود لتقلّب فيك نظر المستريب ، فاذا رجعت إليها البصر تحفرت لك مستوفزة متمرة . . .

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، وإن شئت قلت الغرابة والشذوذ . . . إنها مأساة دامية ، بل وصمة في جبين التحضر الأمريكي الناصع !

كادت قصة الأبيض والأسود تقوّض بناء الجمهورية الفتية وتقصم عراها ، فتفكك دويلات ضئلا ضائعة الشوكة والسلطان ؛ ذلك لأن قديساً من البشر ، مثالي الفكرة ، تعمر الانسانية قلبه ، أبى أن يكون في الجمهورية الجديدة أرقاء من السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الانسان ، حق الحرية والمساواة . . . ذلك هو لنكولن العظيم الذي كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفع راية العدالة ، ويقضى على الثورة حتى خر صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيد مثله الأعلى . . .

لقد وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، وعفّت الحقب آثارها ، ولكن ثمة حرب أخرى ما برحت مستمرة الأوار ، في الخفاء !

لقد بما القانون معاني الرق والاستعباد ، ولكنها لما تزل عامرة بها الصدور . . . الأسود والأبيض سيان أمام القانون ، وأمام فرص الحياة الرسمية في كل منحى من مناحي الاجتماع ، ولكن نصوص القانون في واد ، وفهم القانون والانطباع به في واد آخر بعيد . . . فاذا عرفت أن عقلية الأبيض لا تسبخ بأية حال شخصية ذلك الأسود المنبوذ ، تسنى لك أن تعلم كيف يفهم الأبيض ذلك القانون ، وإلى أي مدى يجري تنفيذه في المجتمع الأمريكي الذي نعدّه معقل الديمقراطية وملاذها الأمين !

ربما تحدث الأبيض إليك عن الأسود بروح لنكون العظم ، روح الإخاء والمساواة ، ولكنه حين يمارس شؤون الحياة ، ويلابس ذلك الأسود في هذه الشؤون ، فسرعان ما تتبدل الحال غير الحال ، فاذا الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود ! لا ألفة بين الأبيض والأسود في أمريكا ؛ فبينهما حاجز تكاثفت طبقاته وتحجرت على ترادف الأيام . ومنشأ ذلك أن الأبيض ما زال بواعيته الحفية ينظر بعين أجداده ، فيرى الأسود عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يسخره فيما يرغب من الأعمال ، فكيف يراد الأبيض اليوم على أن يساويه أولئك العبيد الأرقاء ؟

ومن ناحية أخرى نرى الأسود قد استنار عقله ، واستبان له حقه في أن يعيش حراً على قدم المساواة بينه وبين سائر الناس . . . وإذا كان قد اتخذ أمريكا وطناً له فشأنه في ذلك شأن الأبيض سواء بسواء . . . وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الحفية أن البيض القدماء قد استعبدوا أجداده ظلماً وعدواناً ، فهو يحفظ لأخلافهم البيض ثار الجدود . ومن ثم تشهد في الأسود المعاصر عنجهية وخيلاء ، وتلمح في عينه نظرة الشائر المحنق ، فيزيد ذلك من حفيظة الأبيض عليه ، ويوسع بينهما هوة الشقاق . . .

ومن أضحك المفارقات أن الديمقراطية الرجبة التي هي شعار الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد . . . فهذه الديمقراطية تمنح الهيئات والأفراد حرية التصرف في الأنظمة والإجراءات واتخاذ الخطط التي تيسر سبل النجاح ، وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء الأسود عن رحابها ، مستخدمة في ذلك حقها في أن تقبل من تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بدلاً من أن ينشئ لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفقرة ، وتلظت البغضاء ، وتقطعت أسباب التواصل والاندماج . . .

ستظلين يا هارلم كما أنت ، لا يعنى عليك الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً للنكون خلقوا من طينته ، وأُشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كمثل قديسين ، نصب عيونهم مثله الأعلى في الإنسانية والأخاء ! ولكن أمن الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار لنكون مثالية

قديسة ، فيندمج العنصران النقيضان ، وتزواج العقليتان المختلفتان ؟
أم الخير كل الخير في أن يظل للأسود ميدانه وديناه ، وللابيض حضارته
يمضى بها طوع هواه ، ويطبّعها بعقليته ومنحاه ؟
مهما يكن من قول ، فان في سريرة الغدجلاء ما تضطرب فيه الظنون ! . . .

ما كان لنا وقد ذرعنا شوارع نيويورك وتدسّسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من
عزلة المدينة ، متخطّين أسوارها في نزهات قاصية بين الضواحي والأرباض . . .
وإنك لتحسب نفسك في نزهة حول المدينة ، فاذا بك تعلم أنك قد اقتحمت
حدود ولاية أخرى ، وبدأت تجوب مدائنها ، وتطرق عاصمتها . . .
تحاط نيويورك بضواح طريفة ، سمّوها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات ،
لها جميعاً طابع واحد ، فما أشبه بعضها ببعض : البالساد ، بيرماوتن ،
وست شستر ، لنج بيتش ، كوفي أيلند ، وما إليها . . .
دساكر وبقاع تتجلى فيها مفااتن الريف جمعاء ، ولكنه الريف في مظهر
مثالى شائق . . . إن هذه الدساكر لتعد قرى هنالك ، ولكن أية قرى هذه ؟
تلك وسائل الحضارة في هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضراً له
مزايا الريف . . .

للناس في نيويورك عادة ألفوها ، هى أن يخرجوا إلى تلك البقاع في أيام
الآحاد والعطلات ، وإن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقراً ومقاماً ، يفرعون
إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاء من الزحمة والضجيج . . .
وإن لأهل نيويورك نزعة قوية إلى طلب الراحة ، ينشدونها ويسعون إلى
تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص . . .
ترى أكثر كلماتهم دوراناً على ألسنتهم هى كلمة « ريلاكسى » . . .
يتناقلونها في كل مناسبة ، فهى فردوسهم المفقود ، ونعيمهم الموعود . . . إنها
« التراخي » . . .

وحق للأمريكيين أن يحلموا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها حباً ، ويتحرقون
إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز المنال على أولئك الساكنين اللذين
دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدهم التكاليف على الكسب
والاغتنام !

إنهم لا يخرجون من رَهَق إلا إلى رَهَق ، ولا يخلصون من مجهود إلا إلى مجهود . . . إلى أين يقصدون ؟

ألى سفوح الجبال ، حيث تجول يد الفنان في بحالى الطبيعة فتحيلها جنات بحق : حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول وبحيرات للسباحة والجذف ، ملاعب تحت الحمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تَقَرُّ بها العيون ، وتتلج لها الصدور ؟ . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟ ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وترحمها بين الكتل البشرية في البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فاذا استخلصت جسمك من بين الجموع في آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ألقيت شياطين الزحمة ، وأنظمة « الطواير » قد سقتك هنالك ، ووقفت لك بالمرصاد ، تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أملك في « الريلاكس » فتشدد مع الشاعر العربي قوله :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة في مظان الراحة هنالك معضلة من جسام العضلات ! ولذلك تجلت أمنية « التراخي » في مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولا سيما الفلم السينمائى . . .

تراهم يصورون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ، ويشيدون بمفاتيح المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة . وليس ولعهم بذلك التصوير وتلك الإشادة إلا إرواء لظمأ نفوسهم إلى الراحة والرخاوة . . .

ما أ كثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالتنوع تواقى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه ! . . . وما أروع الطرق التى تصل بعض هذه المتنزهات ببعض ! . . . إنها طرق فسيحة معبدة ، أخلت مضاراً للسيارات تنتهيها وحدها انتهاياً . وقد يتحول الطريق جسراً عظيماً يمتد أميالاً طويلاً ، ثم ينقلب نفقاً هائلاً يتغلغل في جوف الأرض متسللاً تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروج الخضراء والغابات المشتبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو في فن بنائها كأنها لعب مكبرة أو نقوش ملونة . . .

أما الشواطئ الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ، فإن ضنت الطبيعة به خلقوه لها خلقاً ، وأنشأوه إنشاء !

ولعل أكبر ما يميز تلك الشواطئ حفولها بتلك الملاعب التي تسميها : «لونا بارك» . . .

ما أنس لا أنس ملعب كوني أيلند . . . رقعة واسعة تحوى كل عجب غريب من الألعاب التي تأخذ بمجامع الألباب . . .

وإنها لظاهرة تسترعى النظر ، تلك الرغبة التي تمتلئ بها نفوس الأمريكيين في ارتياد أما كن التسلية الطفولية العامة بالصخب والضجة والمخاطر . . . ربما كانت علاجاً يفرعون إليه شفاء لأعصابهم المهوكة ، على نحو ما كان يشفى به نفسه أبو نواس إذ يقول :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتى كانت هى الداء

إنهم يعبون من تلك الخمر الكاوية للأكباد ، لينسوا ما نهكهم من جهد ومشقة . . .

إنهم ليترامون فى ذلك الصخب والضجيج ، يتركون أنفسهم على سجيئها منطلقة ترح وتلعب . . .

هى رغبة فى التحرر من الأغلال : أغلال العمل الدائب ، وأغلال النظم الصارمة !

فى هذه الملاعب يحاولون أن يحطموا هذه الأغلال ، فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوة حصان من خشب يسابق به الريح ، أو ضج سرحاً وهو يترنخ على مقعده فى ذلك القطار الأهوج الذى لا يفتأ فى صعود وهبوط ، أو انبعث ضاحكاً والرحى السحرية تدور به دورتها الحقاء ، ثم تلفظه لفظ النواة ؛ فلا تراه قد ترك لعبة إلا مقبلاً على أخرى طلباً للمزيد من الضحك والمرح !

فى تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطر فى صورة واضحة ، ولكنها مخاطر مأسونة العقى . . . وإن الانسان ليولع بها إرضاء لزعزعة أصيلة فى أغوار نفسه . هذه الحضارة على وجه عام قد أمتت عيشه ، ومهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن لا تكلفه جهداً ذاتياً فى الغامرة ومجادلة المخاوف ، ولا تتطلب منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارع ويصاول ، تعتاقه فى

كل طريق عقبة ، ويخشى فى كل خطوة أن يقع فى شرك ، فإذا ذلل العقبات ، وتحطى الأشرار ، أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهو الغلب . . . أما هذا الانسان الحضري فانه قد أُحيط بما يؤمنه حتى مل الأمن الشائع حوله ، فهو تواق إلى أن يستعيد حياة الفرع ومجاهدة الأهوال ، ولو ساعة فى مجال تتناثر فيه ألعاب الصبيان !

ومن ثم يرمى بنفسه فى تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها سالماً يوهم كبرياءه أنه الفارس المغوار ، والبطل القدام . . . طال بنا التجوال يوماً فى هذه الشواطئ العامرة بالملاعب والمساح والمقاصف ، حتى أذنت شمس النهار بالمغيب ، فإذا بي أسمع صوتاً يقول :
— هلاً رافقتهم إلى مغنى فكتور تنقضى فيه هزيعاً من الليل ؟
فالتفت صوب الصوت ، فواجهنى صديق كريم ، سمح المحيا ، طاق الأسارى ، فقلت له على الفور :

— وما هو مغنى فكتور ؟
— مثابة فى إحدى الضواحي القصوى ، إن شئت سميتها مطعماً ، وإن شئت سميتها منتدي تستمتع فيه بجلسة صافية . . . فقلت له :

— لبيك !
وأقلتنا سيارته الرشيقة ، فانسابت فى طريق من تلك الطرق الفساح ، تمر بنا المروج والغابات والضياح ، يتلو بعضها بعضاً ، فى جو رخى الأنسام ، حتى شارفنا مغنى فكتور . . . حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل ما فيه يشعرك بالألفة ومظاهر الحياة العائلية . . .

لست فى مطعم أو مشرب ، وإنما أنت فى بيت غطريف سرى من أمراء الطليان له فى الحياة ذوق فى مصفى ، تخير هذه البقعة النائية ليحيا مع ضيوفه ورواد مغناه فى دعة وطمأنينة وصفاء ، يقدم لهم أفخر الطعام وأطيب الشراب فى تأنق وسخاء . . .

وتوخينا معزلاً هادئاً بجوار الشرفة ، وأمضينا فترة هائلة . . . لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شئ مما تحفل به مقاصف الليل !

الأبيض والأسود . . . وقصص اخرى !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب نيويورك وقيامها على أطراف الأرباض وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها مهوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تدوق المتع الغالية الرفيعة في سكينته وهدوء
وتلفت حولى أقول :

— أين رب البيت السيد فكتور ؟
فعلا صوت ضخم رددت أصداؤه أبهاء المغنى ، وقد شاعت فيه نغمة حفاوة وترحيب ، تصحبها ضحكة زنانة لا يجيد إطلاقها إلا من كان خالى البال
فملت على صديقى أقول :

— قسا إنه السيد فكتور !
فاعتاض الصديق عن الجواب بالابتسام
وهرع بعض قصاد المغنى إلى مصدر الصوت فى بشاشة وإيناس ، وأهاب بنا الصديق أن نهض كما نهضوا ، فتبعناهم ، فاذا بنا أمام قفص لطيف تقف على إحدى دعائمه ببغاء رشيقة تصوب فينا النظر وتصدعه بعينين حادتين
فهمست فى أذن صديقى :

— من يكون هذا السيد الطريف ؟
— إنه الحل الوفى والصديق الودود لرب الدار
— حقاً إنه خير من يؤدى حق الضيافة !
ولبنا حيناً يحينا هذا السيد ونحييه ، ويفاكهنا ونفاكهه ، وقد توثق بيننا .
الود ، واتصلت أسباب الألفة

ولكن القصاد تكاثروا حول القفص ، وتكاثفت الحلقة ، فاذا بهذا السيد الطريف ينقلب عفريتاً من الجن يصخب ويثور ، ويسلقنا بلسان سليط ، فتراجعنا عنه مهوورين !

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندع صيخته تذهب مع الريح ، ولكنه ما كاد يحس عظمته تتجلى ، ويرى مكانته تتسامى ، حتى أشر وبطر ، وحسب نفسه زعيماً بحق ، وانبرى يثور على من استجابوا له !
ذلك صنيع حيوان .

أترأه محاكياً يفصح عن طبيعة الإنسان ؟
وشرع صديقى يروى لى قصة السيد فكتور

إنه طلياني تآمر كـ ، طلياني فنان في روحه وذوقه ، احتل هذا المغنى بحديقته وبركته ، فأقام هو في الطبقة العليا ، وجعل الطبقة الدنيا مطعماً ومثابة للوجهاء المترفين . . . وإنه ليتفنن في كل ما يقدمه من مأكل ومشرب ، وما تقع عليه العين من أثاث ومتاع . . .

ولقد استغل الحديقة ، فاتخذ منها حظيرة للدواجن ، ومزرعة للخضر والفاكهة ؛ ولذلك يقدم لك من ثمر المزرعة ما هو يانع جنى ، ومن نتائج الحظيرة ما هو منتقى شهى . . .

كل ما عندك أيها السيد فكتور — أو على الأصح أيها السنيور فيتوريو — طريف شائق حتى هذه الببغاء المتمردة الشغوب !

لقد تفتقت عبقريتك عن عمل فني يدل على أن الطليان القِدْح المَعْلَى في حب الجمال !

حقاً لقد ظلمكم زعيمكم الراحل موسوليني أيها الطليان ، إذ حاول أن يخلق منكم جهة حرب وضرب ، وكر وفر ، وما أتم إلا أمة فن جميل ، وذوق رفيع . . .

وهل تقل عظمة الفن والجمال عن عظمة القتال والصيال ؟

محمود محمود